أبو حامد المشرقي
ومخطوطه
"ياقوتة النسب الوهاجة"

أ.د. مختار حبار
كلية الآداب، اللغات و الفنون
جامعة وهران

مقدمة:

مازالت الأمم و الشعوب تهتم بتراثها الثقافي و الحضاري، و تعنى برجاله العلماء الأعلام، و تعمل على تحقيقه ودراسته و نشره، و تؤسس من أجله دورا لجمعه وحفظه، و تعقد له الندوات و الملتقيات لدراسة جوانبه المختلفة: التاريخية منها والحضارية والاجتماعية و الأدبية و العلمية و غيرها، إدراكا منها أن تراث الأمة هو ذاكرتها الجماعية التي حاورت بها حضارات الأمم الأخرى عبر التاريخ و الأزمان، و قد كَتبت أغلب الأقطار العربية تاريخها الثقافي والحضاري و الأدبي والفكري، و عملت على إخراجه من حيز الممكن إلى لكائن، و نشرته في مجلدات، و وزعته على مكتبات العالم، بله العالم العربي، و جعلته في متناول الدارسين و الباحثين، و الناس أجمعين.

و ليست الأمة الجزائرية كونا شاذا بين هذه الأمم و الأقطار، على الرغم من تأخرها عن الركب، وبحكم تاريخها المعروف، و بحكم تعرض تراثها الثقافي و الحضاري – طيلة عهد الاستعمار الفرنسي – إلى المصادرة طورا، و إلى الإتلاف والإهمال والإحراق طورا آخر، و ليس إحراق المكتبة الوطنية في فجر استقلال الجزائر ببعيد، ولا بفعل من الأفعال المعزولة.

لقد بدأت جهود الباحثين الجزائريين تثمر، و بدأت تظهر إلى الوجود، و ذلك على الرغم من قلة العناية بمساعدتهم على نشر مجهودهم العلمي في شتى المجالات المعرفية، و نذكر في هذا المجال أن أغلب البحوث الأكاديمية التي أنجزها باحثون جزائريون في مجال الماجستير و الدكتوراه مازالت مخطوطة، و هي بذلك تضاف إلى الإرث الكبير من المخطوطات التي مازالت في حكم الضياع و النسيان، تنتظر من الدولة الجزائرية بعض الاهتمام و العناية، و من الباحثين الجزائريين كثيرا من الجهد و المثابرة لتحقيقها و نشرها و مدارستها.

و ننوه في هذا المجال بجهود أساتذتنا الكبار أمثال: أ.د. أبو القاسم سعد الله الذي نشر أهم أعماله المتعلقة بهذا التراث و نعني بها كتابه الموسوعي "تاريخ الجزائر الثقافي"، و غيره، و أ.د. عبد الملك مرتاض الذي مازال مثابرا على نشر كثير من الأعمال حول الأدب العربي في الجزائر و ثقافته، و آخر ما صدر له: كتاب "الأدب

الجزائري القديم دراسة في الجذور"، و أ.د. عبد الله الركيبي الذي نشر كتاب: "الشعر الديني الجزائـــري الحديـث، و أ.د. يحي بوعزيز الذي أغنى المكتبة الوطنية ببحوثه حول تاريخ الجزائر القديم و الحديث إلى جانب ما حققه مـــن مخطوطات، و غيرهم مما يطول المقام بذكرهم و بذكر ما أنجزوه من أعمال في التحقيق و الدراسات.

و لقد رأينا من الواجب علينا أن نسهم في خدمة هذا التراث الوطني، و نُعنى بأعلامه و نوابغه الذين مثلوا الثقافة الوطنية خير تمثيل، فأغنوا مجالها بمؤلفاتهم التي مازالت في أغلبها مخطوطة، كما سبق أن أشرنا، و قد وقـــع اختيارنا في هذا الموضوع على علَم من أهم أعلام معسكر، ممن عاشوا في القرن الثالث عشر الهجري / التاســـع عشر الميلادي، هو الشيخ: أبو حامد العربي بن عبد القادر بن على المشرفي المتوفي سنة 1313هـ/1895م، و الذي كان شاهدا على عهدين من عهود تاريخ الجزائر: هما نهاية العهد العثماني و بدايـــة الاستعمار الفرنسي.

رأينا أن نعرف به و بأعماله على العموم، و بمؤلفه "ياقوتة النسب الوهاجة" على الخصـــوص، و هـــو المؤلف الذي حصلنا على نسخة منه مصورة عن نسخة محفوظة بالمكتبة العامة بالرباط تحـــت رقـم:1534 D، زودنا بها أحد طلبتنا –مشكورا– و هو من الطلبة المهتمين بجمع التراث، و قد بعثنا فيهم هذه الـــروح منـــذ أعـــوام خلت، بسبب مشاريع الماجستير التي فتحت في هذا المجال، أي في دراسة الأدب العربي في الجزائر وعلوم اللغـــة، في القديم و الحديث؛ و ذلك في المحاور الآتية: أولا: التعريف بالمشرفي وبأعماله، ثانيا: عرض لأقسام المخطـــوط المذكور و محتواه، ثالثا: قيمة المخطوط، ثم خاتمة.

أولا: أبو حامد المشرفي و مؤلفاته:

هو العربي بن عبد القادر بن علي الحسني المشرفي، أبو حامد، أو أبو محمد "حسب ياقوتة النسب"، مـــن أهل بيت المشارف النازلين بقرية جبل "الكَرط" في ضواحي مدينة معسكر، عاش ما بين نهاية القرن الثالث عشـــر الهجري وأوائل التاسع عشر الميلادي، و المتوفى سنة 1313 هـ/1895م . شهد سقوط الدولة العثمانية، و بدايـــة العهد الفرنسي الاستعماري في الجزائر، كما شهد مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري، و هو بذلك من المخضرمين الذين عاشوا عهدين سياسيين مختلفين.

تعلم العربي المشرفي بمعسكر ثم بوهران، و كان من أشهر أساتذته: محمد أبوراس المعسكري المشـــهور بغزارة علمه وحفظه و مؤلفاته، و ابن عمّه الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي زين العـــابدين المشـــهور باسـم "سقاط" و الذي أخذ عليه العلم بوهران، وهو الذي اشتهر "بمُسند المغرب الأوسط" في وقته، أي القرن الثالث عشـــر الهجري، ثم هاجَر إلى المغرب الأقصى بعد الاحتلال الفرنسي، و أخذ عن جماعة من كبار علماء فاس(1).

اشتغل بعلم التاريخ و ألف فيه كتابا عنْوَنَهُ باسم "ذخيرة الأواخر و الأول" و هو في جزئين على الأقـــل، ولماّ يزل مخطوطا، و تدل بعض النتف التي أطلعنا عليها منه على أهميته فـــي التعريـــف ببعـــض أعـــلام الأدب

إلى إرهاصات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، و ما قاساه في سبيل ذلك مع كفـــار قريـــش، دون تفصيـــل، لأن مقصوده كما قال في نهايتها هو ((الاقتصار على النسب الشريف)) (3).

القسم الأول:

و يبدأ فيه بسرد سلسلة نسب الرسول (صلى الله عليه و سلم)فهو ((محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بـــن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمـــة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان)) (المخطوط:6)، و ينتهي بالسلسلة إلي الجد العشرين أي عدنان، دون أن يجاري سلسلة النسب التي في سيرة ابن هشام و التي يصل بها إلى آدم عليه السلام.

ثم يذكر أنه صلى الله عليه و سلم ما سما بآبائه و جدوده و شرُف، و لكنهم به سموا و شرفوا، و ينقـــل في ذلك أبياتا، كما ينقل عن الماوردي في كتاب أعلام النبوة ((أنه صلى الله عليه و سلم من سلالة آباء كرام ســـادة ليس فيهم مترذل، و ذلك من شروط النبوة، ثم ينتقل إلى سرد صفاته الخُلقية و الخِلقية كما هو موصوف في كتـــب السيرة. كما ينتقل إلى الحديث عن طهارة محتده فيقف عند كل جدّ من جدوده وينكر خصاله ومناقبه التـــي عـــرف بها، بحيث يطول بنا المقام إذا ما تتبعناها.

و ينتقل بعد ذلك إلى سرد نسبة الخلفاء الراشدين الأربعة رضي الله عنهم: أولهم أبو بكر الصديـــق بـــن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بم مرة، تولى الخلافة عام 11 للهجرة و توفي عـــام 13 هـــ، مـــات مسموما، و مدة خلافته عامين، و ثلاثة أشهر وثمانية أيام، ترك ولدين: عبد الرحمن و محمد و دفن مـــع الرســـول صلى الله عليه و سلم.

و ثانيهم: عمر بن الخطاب بن نوفل بن عبد العزّى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزام بن عدي بـــن كعب، قتله أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة و هو في صلاة الصبح، تولى الخلافة عام 13 هـــ و توفي عـــام 23 هـــ مدة خلافته عشر سنين و ستة أشهر ، له عقب.

و ثالثهم: عثمان بن عفان بن (القاصي) بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، تولى الخلافة عام 23هـــ و توفي عام 36هـــ، مدة خلافته 12 سنة، قتلوه في داره ظلما وعدوانا، و له عقب.

و رابعهم: علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بن عبد المطلب، تولى الخلافة عام 36 هـــ و توفي عـــام 40 هـــ بالكوفة، قتله عبد الرحمن بن ملجم عند الفجر و هو في الصلاة، أسلم و هو ابن سبع سنين، غزى في كـــل غزوة إلا في غزوة تبوك، و له من الأولاد خمسة: الحسن و الحسين، و محمد بن الحنفيـــة، و العبـــاس و عمـــر، ومنهم العقب.

القسم الثاني:

و يعرف فيه بالحسن بن علي، المولود عام ثلاثة (3) من الهجرة، كان أشبه بجده صلى الله عليه و سلم، و قتلته زوجته جعدة بنت

الأشعث عام 43 هـ ، و دفن بالبقيع، و له عقب من ولدين: زيد و الحسن المثنى، و هو الذي تزوج بنت عمه فاطمة بنت الحسين بن علي، فأعقب معها ثلاثة: عبد الله الكامل و إبراهيم و الحسن المثلث، و مع غيرها: داود وجعفر و محمد و العابد، و كلهم عقبوا، و كان كثير النساء، يذكرهن ويذكر عقبه معهن، مما يطول المقام بتتبعهم جميعا، وتفرقهم في الأمصار حيث أقام بها إمارات.

منهم محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل القائم بتلمسان مع العين الكبيرة و هي عين الحوت، حيث أقام إمارة "السليمانية"

و منهم الإمام إدريس بن عبد الله الكامل الذي نزل بالمغرب من أعمال طنجة، حيث تخلف هناك عام 172 هـ ، و تزوج بنت عبد المجيد كنزة فولدت الإمام إدريس بن إدريس ابن عبد الله الكامل، و منه تفرعت الأشراف بمغربنا، مات مسموما عام 177 هـ بسبب قارورة من الطيب بعثها له هارون الرشيد هدية، شمها فتوفي و دامت خلافته بالمغرب الأقصى خمس سنين.

القسم الثالث:

و عرف فيه ببعض ذرية الحسن و الحسين، فينكر منهم شرفاء المدينة المنورة المعروفون باسم شرفاء البطحاء، ويحصرهم في نحو إحدى عشر رجلا، تخلف بعضهم في الأمصار، فداوود تخلف في الديلم، و جعفر تخلف في سجستان، وأحمد و حمزة تخلفا في طبرستان، و يوسف تخلف في جرجان، و علي تخلف في مصر، و هؤلاء كلهم حسنيون جدا.

و ينكر منهم شرفاء مكة، و منهم الحسنيون و الحسينيون، و شرفاء العراق، وهم جموع، منهم من أقام بنجد ومنهم من أقام بالساحل، و من بني عمهم من حل بالمغرب الأقصى و الأندلس، و منهم شرفاء بغداد، و شرفاء الشام بحلب و حماة و دمشق وبمصر و كلهم حسنيون من ذرية القطب سيدي عبد القادر الجيلاني الحسني، و الذي ولد عشرة من الهلماء، تفرق عقبهم في الأمصار شرقا و غربا إلى بلاد الأندلس، و قد يطول بنا المقام في تتبعهم وذكرهم جميعا.

وبعد ذلك يرجع المشرفي إلى شرفاء الواسطة "الجزائر" فيكتفي منهم بمن بلغ حدّا من الشهرة، فيقرر أن جدهم هو إدريس الأصغر، و يقال له الأزهر، و هو باني مدينة فاس، بدأت حركته من طنجة حيث نزل، فامتد سلطانه إلى درعة وسجلماسة وتلمسان، و توجه إلى إفريقية "تونس" و يطيل المشرفي الحديث عن حركته التوسعية وما جرى له مع جند هارون الرشيد و دسائسه إلى أن مات سنة 177 هـ ، و ترك ولده في بطن أمه من سبعة أشهر، و هو إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل، و الذي تولى الخلافة و هو ابن إحدى عشر سنة، فعمل مثل أبيه على توطيد سلطانه من فاس بالتوسع في المغرب الأقصى و بعمارة البلاد، و قد توفي مسموما "بحبة من العنب"

عام 213 هـ ، و ترك عقبا من ثلاثة عشر ذكورا، و في رواية أخرى أربعة عشر "صاحب الجمهرة" تولى الخلافة بعده أبناؤه، و يطول الحديث بنا في تتبع تاريخ دولة الأدارسة ثم تحولها إلى الدولة العلوية إلى الآن.

و بعد انتهائه من تاريخ الأدارسة السياسي يذكر جموعا من الشرفاء الذين تفرقوا شعوبا و قبائل في البلاد، منهم: أولاد يوسف الشريف الذين استقروا ببجاية منهم أولاد سيدي عبد الرحمن الشريف، و منهم شرفاء تلمسان ثمانية جموع كلهم أدارسة، وشرفاء عين الحوت، فيهم سليمانيون و بنو زيان ملوك تلمسان، أدارسة أيضا، ومنهم المشارف جدهم الأوسط قطب الراشدية: سيدي الحاج يوسف بن عيسى دفين "الكرط"، عُرُبيٌ من أولاد عرُها شرفاء فيجيج، أي انتقل من فيجيج إلى الراشدية غريس المعسكر، ينتهي نسبه إلى إدريس بن إدريس، ويشير إلى أن سلسلة النسب المعتمدة مذكورة في "الجمان النفيس".

و هكذا يأتي على ذكر جموع من شرفاء الشهرة في بلاد المغرب العربي على العموم، وفي الغرب الجزائري على الخصوص، و في منطقة معسكر و ما جاورها على الأخص، مركزا في كل ذلك على التعريف بأعلام المشارف والذين يصفهم بقوله: ((ورجال المشارف علماء إبراز و فقهاء أخيار و بيوت العلم فيهم مشهورة و بالصلاح معمورة، و أشهر بيوتهم بيت الشيخ المشرفي، كان رضي الله عنه يقوم الليل و يقوم النهار مع بثه العلم للطلبة، فلا تخلو زاويته من مائتي طالب في بعض الأوقات)). ثم يذكر منهم عددا من البيوت منهم: بيت الحمر، و بيت أولاد سيدي بوجلال، و بيت أولاد سيدي البشير، و بيت أولاد سيدي عبد القادر بن محمد، وغيرهم.

ثم يشير إلى أن نقابة الأشراف كانت فيهم "أي المشارف" و قد حصرها فيهم ملوك الترك، قال و قد أدركناها في يد ابن عمنا السيد عبد القادر الأطرش، ثم في يد ابن عمنا السيد محمد بن عبد الله المشرفي طبعا، ثم يذكر عددا من الأعلام الذين أدركهم، منهم ابن عمه و استاذه عبد القادر بن عبد الله المدعو "بسقاط المشرفي" والذي تتلمذ عليه في وهران.

القسم الرابع:

و نخلص معه إلى القسم الرابع من مدونة النسب هذه، و الذي خص به التعريف بالقطب الصالح محمد بن علي مولى مجاجة، و مما عرفه به أنه ((قد جمع الله له بين النسب الطيني و الطيني، أما نسبه الطيني فإنه لابد من شرفاء الأندلس، و هم جموع من الأدارسة))، و قد انتقلت فروع منهم من الأندلس إلى الثغور المقابلة للأندلس، كالقيروان و تونس، و جبال نزارة و ولهاصة بإزاء تلمسان، و الساحل الوهراني و المستغانمي والرزيوي و التنسي و الشرشالي، و الجزائر، و بجاية و برج حمزة، و جبال بني مناصر، وحواضر الزاب، و جبال بوسعادة، فيكون سلف المجاجي بذلك من الجموع التي انتقلت إلى ثغر تنس.

و يعود إلى المجاجي، ناقلا عن محمد بن أحمي المغراوي في "تمييز الأنساب" ما نصه: ((نسبه الطيني من شرفاء الأندلس بني حمود الحسيني، و قال الجعفري هو من شرفاء غرناطة بني عدي الإدريس الحسنى)).

ثم ينقل عن صاحب "سمط اللآل في معرفة الآل" ما نصه: ((كانت أسلافه "المجاجي" تشم منهم رائحة الملك، فهو رضي الله عنه من بيوت الملك، لازالت ذريته تمتد لها الأعناق في النجدة و السماحة و الجود، ويحتمي الجاني بساحتهم، ولهم حرمة وتعظيم مع ملوك الأتراك، و لقد بويع منهم بالخلافة أناس و عقدت لهم الألوية وتبعتهم الجنود أيام الحاج عبد القادر بن محي الدين، فقادوا و انقادوا و صانوا البلاد و العباد من الجور و الفساد ... مات الخليفة أبو شاقور منهم في وقعة شيق)).

ثم ينتقل إلى نسبه الديني، فيقول إنه ((كان إماما هماما عالما عاملا، زاهدا عابدا، تقدم بهذه الأوصاف الشريفة على علماء وقته، و اشتهر بالصلاح و التقوى، و كان للناس فيه اعتقاد عظيم، وكانت كراماته أوضح من شمس الضحى، وهي دليل على استقامته و خيرته، لأن كرامات الأولياء (من) معجزات الأنبياء عليهم الصلاة و السلام، و كانت له بركة عظيمة و دعوة مستجابة)) 4 .

ثم يتحدث عن تفرده في علمي الظاهر و الباطن، فيقول: ((تشدإليه الرحال في المسائل العلمية، هذب النقول ونقحها، و كسى علم التصوف طلاوة و بهجة، و أهل زمانه معترفون له بالتفرد، و ليس فيهم من يلحق شأوه، و لا يدعي ذلك، بل أقروا له بالمسابقة و عدم المشاركة)) 4.

و يتحدث عن شعره و شاعريته، فيقول المشرفي: ((و له الباع العريض، في علم الشعر و القريض، وقفت له على قصيدة طنانة سالمة من عيوب الشعر توسل فيها لمولاه جلّ جلاله من أهل وقته مفوضا أمره إليه في المبغضين له و الحاسدين من أهل زمانه، نص مطلعها:[أفوض أمري للذي فطر السماء] احتوت على أمثال وحكم))4 ، و لكنه لم يذكر نص القصيدة، و قد اطلعت له على قصيدتين، في التصوف، في تعريف الخلق برجال السلف.

و يتحدث عن زاويته، و كرمه لأضيافه و القاصدين، و وقوفه إلى جانب الحاميات التركية في الجزائر، إلى جانب مزج ذلك بكراماته، فيقول: ((كانت زاوية الشيخ سيدي الشيخ سيدي محمد بن على معدة لإقراء الأضياف، ولمن يجاهد في سبيل الله))4.

و يروي في ذلك شاهدا عن الشيخ أبي الحسن الشريف حيث قال: ((خرجنا إلى ثغرتنس بنية الجهاد فلقينا الشيخ سيدي محمد بن علي، فأنزلنا بزازيته، يعني مجاجة، و قد أصابنا الجوع، و كنا نحو من ثلاث عشرة مائة (1300) نقاتل الكفار، و قلنا: و الله ما عندنا ما يكفينا من طعام، وكنا قصدناه بقصر الزاوية للزيارة، فأكرمنا في موضع متسع، وكنا خارج الزاوية، و عندنا من الخيل (ص75) الذكور و الإناث، و قال لنا أنزلوا عن خيولكم واتركوهم لابأس عليهم، (الذي) قد ألف بين قلوبكم هو الذي يؤلف بين قلوبهم))5.

إلى أن يقول: ((و أمرنا بالجلوس على أربعة و عشرين جلسة، و دفع لنا أطباق الرغائف و الثريد و الزبدة و العسل، فضحك رجل منا و قال: أهذا يكفينا؟؟، قال: فأكلنا حتى شبعنا، و شربنا حتى روينا، و قال لنا، أيكم

الرجل الذي قال لا يكفينا هذا؟ ثم أتى بقصعة الزاوية فيها ثلاثون نوعا من الطعام و اللحم فأكلنا أيضا حتى شبعنا، وقرأ لنا الفاتحة عند الصباح، و ودعنا و انصرفنا))5.

و يتحدث عن وفاته و ضريحه بمجاجة فيقول: ((و بعد ذلك توفي رحمه الله – (سنة 1008 هـ) – وقبره مشهور مزار لقضاء الحوائج حول النخلة و في روضتها حول قبره أربعون من الأبرار، فمن وقف عند ضريحه و توسل إلى الله به وبالأربعين نال جميع ما طلبه، فهو كالترياق في سرعة الاستجابة، و من ثم تشد الرحال لزيارته و زيارة رجال المحلة، التي هو أكبرهم فضلا، و الله أعلم، فهو كعبة الزوار، و كان الناس يقولون له: "سفيان العابدين"))5.

و يذكر فيمن رثاه –بعد أن قتل شهيدا – علامة الجزائر سعيد قدورة بقصيدة طويلة يقول في مطلعها 5:

مُصابٌ جَسيمٌ كادَ يُصْمي مَقَاتِلِي وَ رُزْءٌ عَظِيمٌ قَاطِعٌ لِلْمَفَاصِلِ

و كان التوسل بالأولياء إلى الله شائعا في وقت المجاجي و المشرفي، و مازال سائدا، فكان من توسل إلى الله به، كما يذكر المشرفي: ((صالح وقته العلامة أديب الدين و الدنيا سيدي عبد الله برجو الرقيق، كما توسل بغيره من علماء القرن التاسع، فقال5:

و بذِي العلوم و العنايةِ و الرِّضَى في مَعارج الولاية
سيدي عليّ البَهْلول و "وارنيد" الجِلّةِ الفُحول

و للمجاجي عقب و أحفاد ورثوا مجد جدهم الديني و الدنيوي و قد ظلت الزاوية في عهدهم تقوم بدورها الديني والعلمي و التربوي، و قد زارها المشرفي ووصفهم بأوصاف ((الجود و الكرم و حسن الخلق و المروءة و التواضع لخلق الله)) وأنهم كانوا: ((يلقون الضيوف بالبشاشة و طلاقة الوجه. و لا تخلو زاويتهم من علم، فقد شدتنا الأقدار إليها سنة 1249هـ فلقيت بها عالمين جليلين يدعونهم بعلماء المعاريف، متضلعيْن بعلم المعقول و المنقول – نتوسي اسمهما عندي – و معهما عالم جزائري هاجر إليها بنفسه و بأهله يدعى بأبي القاسم))6.

و يذكر المشرفي أن آل أبهلول المجاجي ((كانت لهم أخوة صالحة بين المشارف في القديم و صداقة عظيمة، وربما كانت تلك الصداقة و الأخوة بينهم أصلها المصاهرة، إذ هي التي ينتج و ينشأ عنها الأخوة الدائمة التي لا تتكشف))6.

و يختم هذا القسم الرابع بالإشارة إلى أحفاد المجاجي الذين آل إليهم أمر زاوية مجاجة – على عهد حياة المشرفي – فيذكر منهم: الشيخ هني بن السايح، و نحلة الناسك الحافظ القاضي السيد محمد بن هني، فيقول: ((لا زالت الوجاهة في عقبهم و الجاه، تخضع لهم الرؤوس و الجباه))6.

الخاتمة:

و يختم الأقسام الأربعة بخاتمة جعل موضوعها "في حب آل البيت"، نقل فيها آيات قرآنية مثل قوله تعالى: {قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى} و أحاديث نبوية مثل قوله صلى الله عليه و سلم : ((من مات

على حب آل البيت مات مغفورا له))، كما يعتمد في نقوله على حاشية الرّهوني، و الفتوحات المكية لابن عربـــي، مما اختصره منها الشيخ أحمد زروق، و الشيخ عبد الوهاب الشعراني و غيرهما.

ثالثا: قيمة المخطوط:

1 – في موضوعه: الذي هو "علم النّسب" فهو علم أصيل في العربية، عرفه العرب منـــذ جاهليتـــهم حـــتى الآن، وأهميته تنبع من صلته بالعلوم الإنسانية و الاجتماعية، عموما، وعلم الأنثروبولوجيا الحديـــث خصوصـــا و الـــذي يدرس الإنسان عبر الزمان و المكان، ويدرس ما له صلة به: كاللغـــة و المعتقـــد و النظـــام الاجتمـــاعي و الآداب والفنون، والتاريخ و الآثار و الثقافة، وهلم جرّا مما له صلة بالإنسان، كالتراجم، و الأحداث والأيام و الأنباء و الأمثال وغيرها، و كل ذلك من اهتمامات كتب "علم النسب".

و يكفي للدليل على أهميته بالقياس إلى المؤرخ، نذكر هنا أن ابن خلدون (– 808م) عندما ألف كتابه في التاريخ: "كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم البربر، و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، قد اعترف أنه اعتمد على كتاب "جمهرة أنساب العرب" لصاحبه ابن حزم الأندلسي (–456) ليكتب الجـزء الخاص بنسب البربر، و الذي خصص له ابن حزم جزءا هاما في جمهرته بعنوان "جمهرة من نسب الـــبربر"7 ، ولعل هذا الجزء من الجمهرة هو ((الأصل الأصيل لكل ما يتداوله المؤرخون عندما يتناولون أنساب هؤلاء القـــوم من شمال إفريقيا))8.

و على الرغم من أهمية "علم النسب"، فلم نجد من اهتم بالتأليف فيه من الجزائريين إلا قليلا، و هذا القليـل ما يزال في جملته مخطوطا مثل تأليف الشيخ محمد أبي راس المعسكري المعنون بـ "مروج الذهب في نبذة مـــن النسب و من انتمى إلى الشرف و ذهب"، و بعض من هذا القليل ما يزال في حكم الضياع، كالذي اعتمده المشـرفي في تأليف "ياقوتة النسب" و جاء ذكره فيها عرضا، مثل تأليف محمد بن أحمد المغراوي المسمّى: "تمييز الأنســـاب" والذي قال المشرفي إنه نقل عنه نسب محمد بن علي المجاجي، كما نقل عن مصدرين آخرين في النسب لم يذكـــر مؤلفيهما، و هما: "سمط اللآل في معرفة الآل" و"كمال البغية".

2 – و في محليته: أي إن قيمة المخطوط ليست في قسمه الأول الخاص بنسب النبي – صلى الله عليه و سـلم – و لا في القسم الثاني و لا حتى الثالث الخاصين بنسب آل البيت، لأن ذلك معروف في كتب السير الخاصة والعامة، و إعادة التأليف فيه ضرب من التكرار، و لكن قيمته تكمن في جزء من القسم الثالث الذي اهتم فيه بالأنساب المحليـة في الجزائر، وأرخ فيه لقبائل الأشراف فيها متتبعا سلسلة نسبهم و منحدراتهم التي تعود فـــي أغلبـــها إلـــى عقـــب الأدارسة الحسينيين الذين سبق لهم أن أسسوا دولة الأدارسة في المغرب، و بعضهم يرجع إلـــى عقـــب أشـــراف الأندلس، و كلهم يلتقون في النسب إما بالحسين أو الحسن رضي الله عنهما.

كما تكمن أهميته المحلية، في قسمه الرابع، الذي عرف فيه بشخصية ثقافية هامة، هو محمد بـــن علـــي أبهلول المجاجي، صانع مجد آل أبهلول في منطقة مجاجة و تنس، حيث أسس زاوية و جعل منها مركز استقطاب،

و إشعاع روحي و علمي واجتماعي وجهادي و ثقافي و تربوي، و غيرها من الأبعاد التي جمعت الناس و ألفت بين قلوبهم، وجعلت منهم درعا قوية لمقاومة الغزو الصليبي في عهد المجاجي، و الغزو الفرنسي في عهد الأمير عبد القادر و بعده، و لا زالت الزاوية إلى الآن تقوم بأدوارها الروحية والاجتماعية و التربوية و الثقافية.

كما تكمن أهميته المحلية، في تحديد موطن كل قبيلة من قبائل الأشراف وتوزعها عبر أرجاء الوطن، وإمداداتها فيه، فعلى الرغم من أن المشرفي ركز على ذكر أشراف معسكر و غريس عموما، و قبيلة المشارف في جبل "الكَرط" التي ينتمي إليها بالنسب خصوصا، إلا أنه جاء على ذكر أشهر القبائل في أغلب ولايات الوطن، مثل أولاد يوسف الشريف في بجاية، و مثل جموع شرفاء تلمسان، و عين الحوت، وجبال تزارة وولهاصة، و جموع شرفاء مستغانم و تنس ، وجموع شرفاء الجزائر و أحوازها، وغيرهم، إذ يمكن لكل قبيلة عبر هذا الوطن أن تجد نفسها في هذا المخطوط وتتعرف على نسبها القريب و الوسيط و البعيد، كما يمكن لكل باحث في مجال الإنسانيات أن يجد فيه بغيته،

فالمخطوط وثيقة محلية هامة.

3 – **و في التاريخ:** ففي المخطوط مادة تاريخية لا غنى عنها لكل مؤرخ يريد أن يكتب تاريخ الجزائر، أو تاريخ المغرب العربي، فمن ذلك ذكر المشرفي لتأسيس الدولة الإدريسية في المغرب و توسعها جنوبا نحو سجلماسة، وشرقا نحو الجزائر وتونس، وذكره لإمارة السليمانية في تلمسان و عين الحوت، و ذكره للحاميات التركية على ثغور الجزائر لحمايتها من الهجمات الصليبية، و مشاركة بعض الرباطات في ذلك، كرباطة المجاجي في ثغر تنس، و ذكره لبيعة الأمير عبد القادر من قبل أشراف معسكر لمقاومة الغزو الفرنسي، و ذكره لبعض الغوزات مثل غزوة سيق، و بعض الأحداث مثل قيام محمد بن عربي على الأمير و عدم إذعانه لمشاركته في قتال الزمالة و البرجية، وقال له في رسالة: ((أتتعصب أيها الأمير بالأخ على الأخ)).

4 – **في التصوف:** يعد المخطوط وثيقة هامة في معرفة الحركة الصوفية في الجزائر، و دور الرباطات و الزوايا في جمع شمل الرعية و توحيد كلمتها، و دورها في التربية الروحية، و نشر العلم و المعرفة، و القيام بالوظائف الاجتماعية، ونشر الوعي بالوطنية، و الحث على الجهاد لحماية سلامة التراب الوطني من الغزو الصليبي، و غيرها من الوظائف.

و المثال على ذلك زاوية المجاجي، فقد عرفنا من خلال هذا المخطوط، أن علاقتها بالدولة العثمانية كانت علاقة حميمة، و أنها وقفت إلى جانب الحاميات التركية لرد العدوان الصليبي على الحدود الجزائرية، كما أن أحفاد المجاجي قد شاركوا مشاركة فعالة في صفوف جيش الأمير لقتال المستعمر الفرنسي، يقول: ((و لا زالت ذريته تمتد لها الأعناق في النجدة و السماحة و الجود، و يحتمي الجاني بساحتهم، ولهم حرمة و تعظيم مع ملوك الأتراك، و لقد بويع منهم بالخلافة أناس، وعقدت لهم الألوية، و تبعتهم الجنود أيام الحاج عبد القادر بن محيي الدين، فقادوا

و انقادوا، و صانوا البلاد و العباد، من الجوْر و الفساد، ركبوا الأكتاف، و مرّوا بالأخلاف، و فتحوا الأعراف، ونفوا الخلاف، مات الخليفة أبو شاقرر منهم في وقعة سبق))9.

كما يشير المشرفي إلى التكوين الروحي لأبهول المجاجي و إلى صلاحه و تقواه، وإلى كراماته، فيقول: ((كان إماما هماما، عالما عاملا، زاهدا عابدا، تقدم بهذه الأوصاف الشريفة على علماء وقته، و اشتهر بالصلاح والتقوى، و كان للناس فيه اعتقاد عظيم، و كانت كراماته أوضح من شمس الضحى، و هي دليل على استقامته وخيرته))10 ، و يذكر من كراماته، أن حامية تركية من حوالي 1300 رجل نزلت على مشارف زاويته، و طلبت منه أن يسد رمقها بما لديه من طعام، فقدم لهم بعض ما لديه، فلما رأى أفراد الجند – على كثرتهم – قلة ذلك الطعام، ضحك بعضهم و قال: أهذا الطعام يكفينا!؟، ثم قال: مازالوا يأكلون من ذلك الطعام، فقال لهم المجاجي مازحا: أيكم الرجل الذي قال: أهذا يكفينا!؟.

و لا يفوت المشرفيأن يشيد بدور زاوية المجاجي العلمي، فيبدأ بدور أبهاول نفسه و الذي يقول عنه: ((تشد إليه الرحال في المسائل العلمية، هذب النقول و نقحها، وكسى علم التصوف طلاوة و بهجة، و أهل زمانه معترفون له بالتفرد))10، ثم يثني بأولاده من بعده، فيقول: ((و لا تخلوا زاويتهم من علم، فقد شدتنا الأقدار إليها سنة 1249 هـ، فلقيت بها عالمين جليلين ... و معهما عالم جزائري هاجر إليها بنفسه أو بأهله يدعى بأبي القاسم، و عليه فجاجةُ دار علم و عمل تصيح على العلماء و أهل الخير صياح البقرة على عجلها))11.

و في الخطوط ذكر لزوايا أخرى، من غير زاوية المجاجي، مثل زاوية آل الحاج عبد القادر في ضواحي معسكر، و لا يخفى على أحد دور الأمير الجهادي، و أنه كان مؤسس أول جمهورية جزائرية في التاريخ الحديث، و مثل الشيخ السنوسي المنتمي إلى شرفاء أولاد سيدي عبد الله بن الخطاب بقبيل مجاهر بساحة مستغانم والذي أسس زوايا عديدة بالحجاز و اليمن و الشام و ليبيا، حيث تأسست المملكة الليبية السنوسية، و غيرهم من الأقطاب الذين أسسوا لهم زوايا في ربوع الوطن، مما يجده القارئ مذكورا في هذا المخطوط.

5 – **و في الأدب:** و للمخطوط قيمة أدبية، من جهة عنايته برجاله و بأدبهم، فقد أفاد المشرفي أن للمجاجي (1008 هـ) ((الباع العريض في علم الشعر و القريض)) ثم قال: ((وقفت له على قصيدة طنانة سالمة من عيوب الشعر توسل فيها لمولاه جلّ جلاله، من أهل وقته، مفوضا أمره إليه في المبغضين له و الحاسدين من أهل زمانه نص مطلعها: [أفوض أمري للذي فطر السماء]، و احتوت على أمثال و حكم))12.

كما أفاد أن ((صالح زمنه العلامة أديب الدين و الدنيا سيدي عبد الله بن حواء الرقيق قد توسل به ... كما توسل بغيره من علماء القرن التاسع الهجري فقال13:

وَ بِذي الطّوم و الجَنايَهْ ... والرُّقيِّ في مَعارِجِ الوِلايَهْ

سيِّدِنا عَليِّ النَّهْلُولِ ... وَ وَارِثِيهِ الجِلَّةِ الفُحُولِ

و أفاد المشرفي أن علامة الجزائر سعيد قدورة قد رثى الشيخ المجاجي حين قتل شهيدا سنة (1008 هـ) بقصيدة أثبتها كاملة في المخطوط، و قد نيفت عن الخمسين بيتا، من بين أبيات مطلعها قوله14:

مُصَابٌ جَسِيمٌ كادَ يُصْمِي مَقَاتِلي ... وَ رُزْءٌ عَظِيمٌ قَاطِعٌ لِلْمفاصِلِ

أَلَمَّتْ دَوَاهِي أَذْهَلَتْ كُلَّ ذِي حِجًى ... وَ أَيُّ امْرِيءٍ مِنْ مذْهِلٍ غَيْرُ ذَاهِلِ

فَلَمْ أَرَ خَطْباً كَافْقِقَادِ أَحِبَّـــــةٍ ... ثَوَوْا فِي الثَّرَى ما بَيْنَ صُمِّ الجَنَادِلِ

وَ نَحْنُ نِيامٌ غَافِلُونَ عَـــنِ الَّذِي ... يُرَادُ بِنَــا فَوَيْحُ نَوْمَـــانَ غَافِـلِ

إلى أن يقول:

أَرَى الغَرْبَ يَقْضِي أَمْرَهُ بَعْدَهُ أَسَى ... تَأَمُّرُ أَوْبَاشٍ، وَ نَهْبُ أَرَاذِلِ

وَ تَخْفُقُ فِي نَادِيهِ رَايَـةُ فِتْنَـــةٍ ... تَلُمُّ بِمَفْضُولٍ وَ تُزْرِي بِفَاضِلِ

فَأَعْنِي بِهِ شَيْخَ الشُّيُوخِ محَمَّـــداً ... أَبَيْلُولاً البَاهِي أَجَلَّ البَهَـــالِلِ

و ممن ذكرهم المشرفي في هذا المخطوط أيضا، ابن عمه و استاذه الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي زين العابدين المعروف باسم"سقاط"، و الذي قال عنه: ((الفرد و فقه بعلم المعاني و البيان... و له الباع الطويل في علم العروض، كان شاعرا مفلقا، يعرف طويله و بسيطه، و هزجه و رجزه، له قصيدة مدح بها الشريف السلطان العلوي مولاي عبد الرحمن بن هشام، يوم ذهب له سفيرا بهدايا و تحف من خليفة الوقت الحاج عبد القادر (أي الأمير) مطلعها15:

إن المليحة فلس لا يقاس بها ... إيوان كسرى و لا صرح بذي شرج

جيمية احتوت على حكم و أمثال سر بها الممدوح، و أثابه عليها بجائزة عريضة))

ثم يوفيه حقه من الترجمة فيذكر أنه:كان في السيرة النبوية حافظا حجة لا يفوته فيها سؤال، و أنه أيضا يحفظ البخاري متنا و اسنادا، و كذلك صحيح مسلم، و درّس في التفسير بالبيضاوي، و له تقاييد عليه من أوله إلى آخره، وكان يستخرج معاني الكشاف السنية و غوامض الاعتزال، فصيح اللسان، ثبت الجنان ...و قرأنا عليه في التفسير أحزابا قراءة تحقيق و تدقيق، تولى القضاء بأم عسكر سنين عديدة ... و كان أيام دولة الأتراك عليه الاعتماد... و كذا أيام دولة الحاج عبد القادر بن محي الدين، مع وجود جم غفير من العلماء أهل التحقيق، لا قرارهم واعترافهم بأنه أوحد أهل زمانه، وأعلمهم بالمعقول و المنقول و التاريخ و أنساب العرب ... حج و اعتمر و لقي أشياخا، أخذوا عنه و أخذ عنهم و"فهرسته" تشهد له بذلك))16، توفي بمكناس مسموما أو مخنوقا.

و بذلك فإن مخطوطة "ياقوتة النسب" لا تقتصر قيمتها على موضوعها الذي هو "علم النسب" فحسب، ولكن قيمتها تتعدى ذلك إلى قيم تاريخية، و صوفية روحية، وأدبية، و ثقافية، و أعلامية، و غيرها من الاهتمامات المعرفية التي لا غنى عنها في مجال كتابة تاريخ الجزائر السياسي أو الأدبي أو الثقافي أو الحضاري، و تفاعلات ذلك مع ثقافة الشعوب الأخرى و حضارتها.

خاتمة:

و إذا كان لا بد لنا من كلمة ختامية، فينبغي أن تسجل اعترافنا بقصورنا في حق خدمة تراثنا، على الرغم من وعينا بكونه هو ذاكرتنا الجماعية، و وعينا بأن كتابة تاريخنا السياسي و الثقافي و الحضاري لا يمكن أن يتم بدون جمع وثائق بلادنا، واسترجاع المنهوب منها و المصادر في شتى أنحاء مكتبات العالم، و العمل على تحقيقها ونشرها ودراستها.

و أقترح في هذا المجال أن تخصص السلطات الولائية منحا لطلاب الدراسات العليا، و للباحثين، القادرين علميا على جلب المخطوطات الخاصة بهذه الولاية، أو تلك، من داخل الوطن و من خارجه، مساعدة لهم على التنقل والاعتكاف عليها لتحقيقها ثم نشرها، مع العلم أن "قسم اللغة العربية" في جامعة وهران فتح مشاريع ماجستير في مجال الدراسات اللغوية و الأدبية الجزائرية القديم منها و الحديث، لتحقيق بعض هذه الأهداف الوطنية، إلى جانب الأهداف البيداغوجية و العلمية.

الإحالات:

1 - ترجم له: عادل نويهض – معجم أعلام الجزائر :303، مؤسسة نويهض الثقافية – الطبعة الثالثة – بيروت: 1983، و انظر المراجع التي به: (خلاد. جزولة: 205/3) و (مجلة البحث العلمي: 126/1) و (مجلة تطوان: 65/6) و (الدرر الفاخرة:23) و (دليل مؤرخ المغرب: 121 وغيرها) و (أوراق جزائرية).

2 – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي – 70.71/1 – نقلا عن "ذخيرة الأواخر و الأول "مخطوط" ج10.11/2". و القصيدة المذكورة منسوبة إلى المنداسي أيضا، و هي في ديوانه القصيح بتحقيق المرحوم: رابح بونار، و لاتدري على التحقيق أهي للحوضي فعلا، أم للمنداسي؟

3 - العربي المشرفي: ياقوتة النسب الوهاجة "مخطوط": 6.

4 – م.السابق:74.

5 – م.السابق: 76.

6 – م. السابق: 81.

7 – علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب – تحقيق: عبد السلام محمد هارون – دار المعارف – القاهرة – 1962 – 195.

8 – انظ م. السابق: 14.

9 – ياقوتة النسب الوهاجة: 72.

10 – م. السابق:74.

11 – م. السابق: 81.

12 – م. السابق: 75.

13 – م. السابق: 81.

14 – م. السابق: 76.

15 – م. السابق: 44.

16 – م. السابق: 45.